(١/ ٤٦٢) والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نُخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغماد[١] لفعلنا؛ وعند أحمد من حديث أنس رضي الله عنه، وقولُ سعد ابن معاذ رضي الله عنه (١/ ٤٦٢) عند ابن مردويه عن علقمة بن وقاص الليثي: فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب، ما سلكتها قطُّ، ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يَمَنَ، لنسيرنَّ معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكم متبعون، ولعلَّ أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض، فصِلْ حبال من شئت، واقطعْ حبال من شئت، وعادِ من شئت، وسالم من شئت، وخُذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾[٢]. وزاد الأموي: وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت به من أمر فأمرُنا تَبَعٌ لأمرك.

التوكل على الله تعالى وتكذيب أهل الباطل

قصة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في هذا الأمر مع منجِّم

أخرج الحارث والخطيب في كتاب النجوم عن عبد الله بن عوف بن الأحمر أن مسافر بن عوف بن الأحمر: قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حين انصرف من الأنبار[٣] إلى أهل النَّهروان[٤]: يا أمير المؤمنين! لا تَسِرْ في هذه الساعة وسِرْه في ثلاث ساعات يمضين من النهار، قال علي: ولِمَ! قال: لأنك إن سرتَ في هذه الساعة أصابك أنت وأصحابك بلاء وضرر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرتَ وأصبت وطلبت، فقال عليٌّ: ما كان لمحمد ﷺ منجِّم ولا لنا من بعده، هل تعلم ما في بطن فرسي هذه؟ قال: إن حسَبتُ علمتُ، قال: من صدَّقك بهذا القول كذَّب القرآن قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحامِ﴾[٥] الآية، ما كان

---

(١) «بَرْك الغماد»: موضع باليمن.

(٢) [٨/ سورة الأنفال/ ٥].

(٣) «الأنبار»: مدينة قرب بلخ وهي قصبة ناحية جورجان وهي على الجبل. «معجم البلدان» (١/ ٢٥٧).

(٤) «النهروان»: هي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي. حدها الأعلى متصل ببغداد وفيها عدة بلاد متوسطة، كان بها وقعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع الخوارج مشهورة. «معجم البلدان» (٥/ ٣٢٤).

(٥) [٣١/ سورة لقمان/ ٣٤].

محمد ﷺ يدّعي ما ادّعيت علمه! تزعم أنّكَ تُهدي إلى علم الساعة التي يصيب السوء من سافر فيها؟ قال: نعم، قال: من صدّقك بهذا القول استغنى عن الله تعالى في صرف المكروه عنه، وينبغي للمقيم بأمرك أن يوليك لأمر دون الله ربه لأنك أنت تزعم هدايته إلى الساعة التي ينجو من السوء مَنْ سافر فيها؛ فمن آمن بهذا القول لن آمن عليه أن يكون كمن اتخذ دون الله نِدّاً وضِدّاً، اللهم! لا طائر إلا طيرُك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك، نكذبك ونخالفك ونسير في هذه الساعة التي تنهانا عنها. ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس! إياكم وتعلُّم هذه النجوم إلا ما يُهتدى به في ظلمات البرّ والبحر، إنّما المنجّم كالكافر والكافر في النار والله، لئن بلغني أنّك تنظر في النجوم وتعمل بها لأخلدنّك في الحبس ما بقيتُ وبقيتَ. ولأحرمنّك العطاء ما كان لي سلطان، ثم سار في الساعة التي نهاه عنها فأتى أهل النّهروان فقتلهم ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها فظفرنا أو ظهرنا لقال قائل: سار في الساعة التي أمر بها المنجم، ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده، ففتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان أيها الناس! توكّلوا على الله وثقوا به فإنه يكفي ما سواه، كذا في الكنز (٥/ ٢٣٥).

طلب العزّ بما أعزَّ الله به

قصص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الشأن

أخرج الحاكم (١/ ٦١) عن طارق بن شهاب قال: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام ـ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ـ فأتوا على مخاضة[1] وعمر على ناقة له، فنزل عنها وخلع خفّيه فوضعهما على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! أأنت تفعل هذا تخلع خفّيك وتضعهما على عاتقك وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرّني أن أهل البلد استشرفوك[2]، فقال عمر: أوّه! لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ، إنّا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي فقال: على شرطهما.

---

(١) «مخاضة»: موضع الخوض في الماء.

(٢) «استشرفوك»: الاستشراف: أن تضع يدك على حاجبك وتنظر، كالذي يستظلّ من الشمس حتى يستبين الشيء. وأصله من الشرف: العلوّ، كأنّه ينظر إليه من موضع مرتفع فيكون أكثر لإدراكه. «النهاية» (٢/ ٤٦٢).

وعنده أيضاً (١/ ٦٢) عنه، قال: لما قدم عمر رضي الله عنه الشام لقيه الجنود وعليه إزار وخفّان وعمامة، وهو آخذ برأس بعيره يخوض الماء فقال له ـ يعني قائل يا أمير المؤمنين! تلقاك الجنود وبطارقة[١] والشام وأنت على حالك هذه! فقال عمر: إنا قوم أعزّنا الله بالإسلام فلن نبتغي العزّ بغيره.

وعنده أيضاً (٣/ ٨٢) عنه: فقال له: أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: لقد فعلتَ يا أمير المؤمنين فعلاً عظيماً عند أهل الأرض!! نزعت خفيك وقدمت راحلتك وخضتَ المخاضة!!. قال: فصكّ عمر بيده في صدر أبي عبيدة فقال: أوّه! لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة! أنتم كنتم أقلّ الناس وأذلّ الناس فأعزّكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلّكم الله تعالى. وأخرجه أبو نُعيم في الحلية (١/ ٤٧) عن طارق نحوه وابن المبارك وهنّاد والبيهقي في شُعَب الإيمان عنه نحوه، كما في منتخب الكنز (٤/ ٤٠٠).

وعند أبي نعيم أيضاً في الحلية (١/ ٤٧) عن قيس، قال: لمّا قدم عمر رضي الله عنه الشام استقبله الناس وهو على بعيره فقالوا: يا أمير المؤمنين! لو ركبت بِرذوناً[٢]، تلقاك عظماء الناس ووجوههم! فقال: لا أراكم ههنا إنما الأمر من ههنا ـ وأشار بيده إلى السماء ـ خلُّوا سبيل جملي.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي العالية الشامي قال: قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية على طريق إيلياء[٣] على جمل أورق[٤] تلوح صلعته[٥] للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعيتي الرَّحْل بلا رِكاب، وطاؤه كساء أنبجاني ذو صوف. هو وطاؤه إذا ركب وفراشه إذا نزل، حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفاً[٦]، هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرابيس[٧] قد رسم[٨] وتخرّق جنبه، فقال: ادعوا لي رأس القوم، فدعوا له الجلوس، فقال: اغسلوا قميصي وخيطوه وأعيروني ثوباً أو

(١) «بطارقة»: جمع بطريق، وهو الحاذق بالحرب وأمورها وهو ذو منصب عند الروم.
(٢) «برذوناً»: هو التركي من الخيل.
(٣) «إيلياء»: مدينة بيت المقدس وقيل معناه بيت الله. «معجم البلدان» (١/ ٢٩٣).
(٤) «أورق»: أي أسمر.
(٥) «صلعته»: موضع الصلع وهو انحسار شعر الرأس.
(٦) «الليف»: قشر النخل وما شاكله.
(٧) «كرابيس»: جمع كرباس وهو القطن.
(٨) «الثوب المرسّم»: أي المخطّط خطوطاً خفية. «النهاية» (٢/ ٢٢٤).

قميصاً، فأتي بقميص كتان[1]، فقال: ما هذا؟ قالوا: كتان، قال: وما الكتان؟ فأخبروه فنزع قميصه فغُسل ورُقع وأُتي به فنزع قميصهم ولبس قميصه، فقال له الجلوس: أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت برذوناً؛ لكان ذلك أعظم في أعين الروم، فقال: نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً، فأُتي ببرذَون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رَحل فركبه بها، فقال: احبسوا احبسوا، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا، فأُتي بجمله فركبه. كذا في البداية (٧/ ٦٠).

رعاية أهل الذمّة في حال العزّة

أخرج أبو نُعيم في الحلية (١/ ٢٠١) عن أبي نُهيك وعبد الله بن حنظلة قال: كنّا مع سلمان رضي الله عنه في جيش فقرأ رجل سورة مريم، قال: فسبّها رجل[2] وابنها، قال: فضربناه حتى أدميناه. قال: فأتى سلمانَ فاشتكى، وقبل ذلك ما كان قد اشْتُكِيَ إليه، قال: وكان الإنسان إذا ظُلم اشتكى إلى سلمان، قال: فأتانا فقال: لِمَ ضربتم هذا الرجل؟ قال: قلنا: قرأنا سورة مريم فسبَّ مريم وابنها، قال: ولِمَ تسمعونهم ذاك؟ ألم تسمعوا قول الله عز وجل؟ ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّوا اللّهَ عَدْواً بِغَيرِ عِلْمٍ﴾[3] بما لا يعلمون ثم قال: يا معشر العرب! ألم تكونوا شرَّ الناس ديناً وشرَّ الناس داراً وشرَّ الناس عيشاً فأعزّكم الله وأعطاكم؟ أتريدون أن تأخذوا الناس بعزة الله؟ والله! لتنتهنَّ أو ليأخذنَّ الله عز وجلّ ما في أيديكم فليعطينّه غيركم، ثم أخذ يعلّمنا فقال: صلوا ما بين صلاتي العشاء فإنَّ أحدكم يخفف عنه من حزبه ويذهب عنه ملغاة أول الليل فإنَّ ملغاة أول الليل[4] مهدمة لآخره.

الاعتبار بحال من ترك أمر الله تعالى

أخرج أبو نُعيم في الحلية (١/ ٢١٦) عن جُبير بن نفير رضي الله عنه قال: لمّا فتحت قبرص[5] فُرّقَ بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض ورأيت أبا الدرداء رضي الله عنه جالساً

---

(١) «كتان»: نبات له زهر أزرق تنسج منه الثياب.

(٢) الظاهر أنّ هذا الرجل كان يهودياً ذمّيّاً.

(٣) [٦/ سورة الأنعام/ ١٠٨].

(٤) «الملغاة»: مفعلة من اللّغو والباطل، يُريد السّهر فيه، فإنه يمنع من قيام الليل «النهاية» (٤/ ٢٥٨).

(٥) «قبرص»: ذكرها ياقوت في معجمه (٤/ ٣٠٥) بالسين المهملة وقال: كلمة رومية، وافقت من العربيّة القُبرس النحاس الجيد. وهي جزيرة في بحر الرّوم. اهـ.

وحده يبكي فقلت يا أبا الدرداء! ما يبكيك في يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: ويحك يا جُبير! ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره بيتا هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى. وأخرجه ابن جرير في تاريخه (٣/ ٣١٨) عن جبير نحوه وزاد بعد قوله: فصاروا إلى ما ترى فسلط عليهم السباء وإذا سُلّط السّباء على قوم فليس لله فيهم حاجة.

إخلاص النية لله تعالى وإرادة الآخرة

قول معاذ لعمر رضي الله عنهما في هذا الشأن

أخرج ابن جرير عن ابن أبي مريم، قال: مرّ عمر بن الخطاب بمعاذ بن جبل رضي الله عنهما فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث وهن المنجيات: الإخلاص وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها، والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة؛ فقال عمر: صدقت، فلما جاوزه قال معاذ لجلسائه: أما! إن سنتيك خير من سنتهم ويكون بعدك اختلاف ولن يبقى[1] إلاّ يسير؛ كذا في الكنز (٨/ ٢٢٦).

قصة عامر بن عبد قيس في هذا الأمر

أخرج ابن جرير في تاريخه (٣/ ١٢٨) عن أبي عبدة العنبري قال: لمّا هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض[2]، أقبل رجل بحُقّ[3] معه فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط!! ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه!! فقالوا: هل أخذتَ منه شيئاً؟ فقال: أما والله، لولا الله ما أتيتُكم به، فعرفوا أنّ للرجل شأناً فقالوا: من أنتَ؟ فقال: لا والله! لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقرّظوني[4]، ولكنّي أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس[5].

شهادة سعد وجابر في جند القادسية

أخرج ابن جرير في تاريخه (٣/ ١٢٨) من طريق سيف عن محمد وطلحة والمهلب

---

(١) «ولن يبقى»: أي عمر.

(٢) «الأقباض»: جمع قَبَض بالتحريك وهو ما قُبض وجمع من الغنيمة.

(٣) «بحُقّ»: وعاء كوعاء الطيب.

(٤) «التقريظ»: هو مدح الحيّ ووصفه «النهاية» (٤/ ٤٣).

(٥) هو عامر بن عبد القيس، القدوة الوليّ الزّاهد، كان ثقة من عبّاد التابعين، رآه كعب الأحبار فقال: هذا راهب هذه الأمة. وكان يقرئ الناس القرآن. قبره ببيت المقدس «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٨) راجع ترجمته فإنها ثمينة.